الصوت والشجرة الفلسطينية

شفيعة الداغستاني

كانت الغرفة تتلفع بالعتمة ، وكان في زاوية منها يقبع بالقرب مني مذياع صغير حركته اصابعي و .. شدني اليه رابط من ذهول . انه الصوت الذي اميزه من بين الف صوت ، واحسست رجفة تسري في كياني . والصوت يعلو . ويعلو الصدى الذي ترجعه الجدران العالية .

بعد الف عام نعود ، لنجدني في المكان الذي تركتني فيه ، لم يتغير في شيء ، سوى انني نسيت ملامحك . ضاعت وسط فوضى الفراغ في ايامي . ولطالما حاولت ان ارسم لذاكرتي صوتا من سراب ورنين ، وشيء اخر ظل مجهولا فيك ، لكني عجزت ، ولطالما تذكرت تلك الاحداث الصغيرة التي شدتني اليك ، واستمتعت من بعض ما كان فيها من حمق .

الصق وجهي بزجاج النافذة البارد ، امامي وردة بللها قطرات الندى ، واصوات العصافير تصلني طيبة تندو ناعمة ساذجة للمطر . الريح تعصف ، تحمل وريقات يابسة من حديقتنا الصغيرة الى حيث لا ندري . انها الرحلة الدائمة من المكان الذي نراه الى حيث لا نرى او لا ندري ، سافر خلالها الناس والاشياء والازمات ، ينزلقون من بين ايدينا الى حيث تحملهم ريح ما ولا يرجعون .

نسرد على صحب الصمت حولي صوت فيروز « فليكن موت ابنك حياة لطالبيها » ادور حول الصوت ، حول نفسي ، وتقذفني الجدران الى الطريق الذي ملت اسياره العيني عليها منذ العصور ، فلصق بوجهي البنايات وواجهات المحلات المضيئة ، والسماء واعمدة الكهرباء ، واللا شيء . أردد مع نفسي عبارات لكازنتزاكي ، واحلم بمسيح جديد اكثر صلابة وواقعية مسيح يحمل بدل الصليب رشاشا احلم بمريام جديدة تلف شعرها جراحه . احلم بملون مسيح قوي ، واكثر .. « فليكن موت ابنك حياة لطالبيها » .

انها الصوت الذي غنى للثورة ، حين انتشرت ظلاله ، وعانقت غابة من الفرح والامل والانتصار . اني امیزك من بين الف صوت ، وها انا ارتجف رهبة ازاءك وانت تجيئني عابرا من جديد ازمنة الصمت الكالح ، وها انا الون من جديد تلك البقع الشاحبة في اللوحة السرياليه ، واتحسس طريقي .

...

اسير بمحاذاة دجلة ، السماء ما عادت الا قطعة من الليل العميق ، تتراءى لي على الجانب الاخر غابات النخيل مثل هياكل زنجية في وقفة اي جزء اخر من جسده فصار الذراع اطول منه ، صلاة وعبادة .

الليل ، والنهر ، وسماء بغداد ابداعه . اخي الى جانبي يصفر لحنا لموسارت

ـ هل تحب موسارت يا صخر ؟

ـ على ابة حال ، هو ضمن من اود ان اسمع لهم ، « صخر » لطالما كنت اشبهه بشجرة ، بقامته الطويلة ، المغروسة في الارض ، حتى حين كان يسير كنت اراه بشكل او باخر مغروسا في الارض ، منبثقا منها ، متحدا واياها ، ولانني لم اعرف له اسرة او اقرباء فاني تماديت في تصوراتي من ان الارض تمخضت عنه ذات صبح ، فانبعث منها عشبا او غصنا صغيرا ، فشرب الهواء ، وتغذى باشعة الشمس ، وليس الرمل ، والحشائش ، ويوما بعد يوم نمى ، وكبر ، حتى اسم او لفظ او لون . هو غدى ذراعه اكثر من صار يحجب عني ما وراءه حين يقف امامي .

هو الان هناك ، يمارس طقوسه بشغف يزداد يوما بعد يوم ، ويتعمق في نفسه بعد كل نكسة ، وكل عدوان . هناك يحتضن (كلاشنكوفه) ، وتبرق عيناه الصغيرتان في الظلمة . هو عرف طريقه منذ نعومة اظفاره ، ولم يبحث يوما عن اسم او لون هو غذى ذراعه اكثر من اي جزء اخر من جسده ..

وصار الذراع طويلا .

وصار الكف واسعا ، وهكذا كان افضل منا جميعا ، اذ ليس فينا من جعل يده العاملة اطول من جسده .

كنا مجموعة صغيرة لا يزيد عددنا على عدد اصابع اليدين ، جمعت بيننا سني الدراسة الجامعية ، كما جمعت بيننا اصالة الانتماء الى (القضية) ، لم باعدت بيننا الايام ، وضعنا بحثا عن (الهدف) و (الطريق) ، او انغمسنا في متاهات التخبط في البحث عن (اجدوى) ، وركضنا وراء الفلسفات العصرية ، وضحكنا ببلاهة . وبكينا بخوف ، ومارسنا كل على طريقته طقوس الضياع والازدواجية شئنا ذلك امابينا ، الا هو .. صخر .. الشجرة الفلسطينية المعطاء .

بمحاذاة دجلة اسير ، تهب النسائم مبللة ، اشم فيها رائحة فطرية هي مزيج من رائحة الرمل والحشائش واسمك (المسكوف) ورائحة ازهار سرية لا اسم لها .

نسرع خطواتي ، تسرع ، اركض ، وصوت اخي يلاحقني الا افعل ذلك بحق كل السموات ، انها بغداد ، واني امراة شرقية وما افعله هو (استهتار) كبير ، و (خرق) للتقاليد والقواعد . اركض ... اركض .. والساحل يمتد امامي لزجا براقا تحت ضوء القمر . اركض ونبض قلبي طبول افريقية في غابة الليل اسوداء . اركض ، وامامي يركض القمر ، تتابع في مخيلتي اصوات ووجوه وسطور قرانها ، وفجاة.. هوى القمر ، وبرق الكون بلون جديد لم اعرفه من قبل ، مددت يدي الى اقرب نخلة لكنها تهاوت قبل ان تصل اليها ، والموج يبتلعني ، ويبتلع القمر والنخيل والبنايات الشامخة .

وحدي كما شئت ، في الغرفة القديمه ، لا افكر ، لا ارى ، لا احس انني (وحيدة) و(منفردة) ويوما بعد يوم يتعملق الفراش واتضاءل انا . اي مخلوق غبي كنته ، اية جبال من جليد البلادة احمل فوق كتفي ، اني لا اصلح لشيء ، واخشى ان ادرك مكاني المنزوي هذا ، يعشعش في داخلي: خوف ، وبلادة ، وصمت ، وانهزام ، كيف استطعت ان تربدني يا صخر ! الا تدرك حجم الهوة التي تفصل ما بيننا !!

انني الان وحدي، ابحث في الذاكرة عن قامتك ، وعن صوت ادمنته اعصابي . لم اعد اصرخ في طلبه ، ولم تعد تنتابني نوبات الشوق المجنون ، اني عاقلة الان، عاقلة جدا ، اكثر مما يطمحون ، ومن موقع العقل والحكمة اريد الصوت القديم ، واريد امتداد قامتك ، وتضاريس الارض على وجهك . ترى هل كان وجهك قطعة من الارض خطت عليها الريح والشمس تضاريس لتشبه ملامح انسان ! ام ان وجهك هو الاصل ، وهو الذي تشق عن ارض صغيره ، كبرت على مر الزمن وامتدت على ساحل المتوسط !!!

الفجر بعد نحوي اجنحة زرقاء . لا تزال اصابعي تمتد بمرارة صامتة نحو المذياع تبحث عن (الصوت) .. لا صوت ، والفجر الاخرس باجنحة زرقاء يستلقي فوق الاشجار وسطوح المنازل ، وافكر : علي ان انتزع سم الصوت من دمي . الم ادرك بعد انه ليس سوى حبل يشدني الى كتلة رغبات مكرورة ، واحلام ، ونزوات ، الم ادرك ليونة الارض التي يطلع منها الصوت البني !! الم ادرك اني كذبت حتى العظم حين النبي !! الم ادرك اني كذبت حتى العظم حين قررت ان بامكاني ان احب الصوت دون المادة التي ينبثق منها ! أواه ليتني اجدك الان بين ثنايا الاسلاك الدقيقة التي تنطوي عليها بطن المذياع . ليتني اجدك لاعتصرك بين كفين من طرش فلا اسمعك بعد هذا ابدا ايها النبي الغارق حتى الاذنيه في الخطيئة .

كان يوما شاحبا من ايام ايلول ، رغم الاحمرار المساء يتدفق كان شاحبا . رغم انتفاخه بالالم كان نحيلا ، مريضا ، اسود الوجه . كان يوما شاحبا من ايلول ، ادركت فيه ان عضة الوحش هذه المرة كانت لئيمة اكثر من اية مرة . انيابه غرزت في صدر الوليد . كان الجرح امامي احمر، متفتحا ، وكان لالم ورائحة الدم والغدر. احسست انذاك اني اتساقط ، ورجعت الى نفسي ادخلها ، وانتحب ، بتلك الانهزامية القديمة . مددت يدي الى اله او شيطان ، بحثت عن قوة ما ، لكن الفشل احاق بي بوحشية . انا لا اشبهك يا صخر . انا انطوي، واحزن ، واهرم .

ـ العابين .. اني لم اشعر بالاستمرار في حياتي مثلما اشعر به حين اذكر اربع سنوات انفقتها في دراسة بلهاء ، ان اللوم ليغرز اصابعه في عيني كلما تذكرت ذلك . لقد عملت مع غسان كنفاني وفي شهور قليلة علمني في السياسة والصحافة والكتابة اضعاف ما علمتني كلية فارغة في اربع سنوات .

ـ حدثني عن غسان يا صخر .

ـ لست اقول غير انه كان (مدرسة) ، ولقد خلف اثارا يمكن ان تربي اجيالا من الثوار . كان معلما ، ولقد ادى هو الرسالة ، ورسالتنا ان نتعلم ما علمنا ، وما اراد ان يعلمنا ، وان نعلم بدورنا كل ذلك .

على صفحة الكتاب الضخم يبدا وجهك يا غسان ، وازاء وجهك انا ام مرة ، وتلميذة مرة ، وقلب احب فيك الاصالة والاصرار والنقاء ، فاهما وقد اسنطت بموتك الى وجود انساني راق .

لسطورك كما لصوتك في نفسي دين ، ايها المخلوق الذي تمخضت عنه افكاري ، لم تملكني وساد في ايامي . لكلماتك رائحة البخور المنبعثة من المعابد الهندية القديمة . احمل سطورك فوق اجنحة (السيمفونية البحرية) واغرق في لجج مياه سرية لبحر شيد بين الارض والسماء . ابرد .. ابرد ، واحلم بمساحة صغيرة من الصحراء اغمر في رمالها الحارة جسدي ، واغفو امام الله والقمر .

تسالني عن مبعث احزاني !

اسمع قصتي اذن :

ضحى ذات يوم ، في الزمان الغابر ، كنت اعدو فوق روابي بلادي ، بضفيرتين تحكيان للريح قصة فرح ولد من لقاء الشمس والارض والاشجار واعوامي الستة . الى جانبي كانت تتراكض اشجار البرتقال تتوهج مثل ضفائري تحت نور الشمس وثمة ، فوق تلك الروابي اقسمت واشجار البرتقال على عهد صداقة ابدية . وهكذا تجدني وقد رحلت عنها ، حزينة، ويزداد حزني كلما اسمع انها تذوي من الحزن شيئا فشيئا ، وان تلك الروابي الجميلة ، صارت تسمى « ارض البرتقال الحزين » صخر ..

انه الصوت من جديد ينساب سطورا نارية خلال دمي ، لكنه هذه المرة يعود لينبثق مني . انني اغني الان ، اغسل عار صمتي الطويل . اني اثوب اليكم يا صخر ، وابكي من الحب ، واجرب ان اطلع مع كل فجر ، واعد كل الصغار الحزانى في «شاتيلا» «والوحدات» «واليرموك» و « الشاطىء » و « البارد » و « البداوي » وكل المخيمات ، بمرح كثير ، والفراح ، تحت وهج الشمس ، في ارض برتقال سعيد .

لقد وجدت لقدمي مكانا ، وانني احاول صادقة ان املاه .

اغاني الثورة العميقة في صوت "محسنة توفيق"

بتاريخ ٢٢ ـ ١٢ ـ ٩٧٣ ، اجرت الصفحة الثقافية على قاعة جمال عبد الناصر بالجامعة العربية لقاء جماهيريا ضخما ادت فيه الفنانة التقدمية محسنة توفيق اغاني الشيخ امام من شعر احمد فؤاد نجم ... وقد عبرت الصفحة الثقافية عن مغزى لقاءها هذا بالكلمة التالية :

ـ « من اجل ثقافة ثورية ، ولترتفع البنادق من اجل التحرير الكامل للتراب الفلسطيني » .

هذا هو شعار الصفحة « الثقافية » بمجلة الهدف لهذه الفترة . وفي ضوء هذا الشعار ستمارس فعاليتها ..

ان الثقافة الثورية ليست اجترارا او تقليدا ، كما انها ليست علبة تفتح ويؤخذ منها ما هو مطلوب ويهمل ما لا لزوم له ، بل الثقافة الثورية هي بالمقام الاول ممارسة والصعود بهذه الممارسة نحو اعلى المستويات الانسانية. فنشيد الاممية لم يكتسب اهميته من اسم مؤلفه «هيجو» بل اكتسب اهميته من تفاعل جماهير باريس الثورية اثناء تمرسها بالنضال ..

وعلى اغاني الثورة الفلسطينية واهازيج المقاتلين ينسحب نفس هذا الحكم ..

وهذه الاغاني والاهازيج هي من تراث الوطن الذي ستحرره البنادق وليس المؤتمرات .. فقتالية شعبنا افرزت ادبا وفنا ثوريين ..

والقتال الذي يفرز مثل هذا الادب والفن لا بد ان يفرز نصرا ونصرا عظيما اكبر من كل المتخاذلين والمنبطحين امام ابواب الدول الامبريالية ..

« كلاشنكوف يمحلي الدم سيال

ودكتريوف يرجع اراضينا »

هذا التعبير البسيط الذي ابدعه المقاتلون لنضالهم الطويل الشاق والذي يعتمل دائما في قلوبهم سيكون ولا شك مستقبل الاجيال الثورية القادمة . هكذا يجب ان يكون الغناء ..

وهنا علينا ان نتذكر ما قاله الرفيق هوشي منه للشعب الفيتنامي البطل وللشعوب المضطهدة: لكي نكون ثوريين حقيقيين يجب علينا ان نعرف كيف نغني ..

ان شكل النضال ودرجة تطوره ، خبرة الفنان اليومية وانحيازاته هي التي تحدد مسار العمل الادبي او الفني .. انا ندرك جيدا ذلك، ولهذا نجد مثلا الشاعر احمد فؤاد نجم والذي يغني شعره الشيخ امام يخلف هنا وهناك في قصائده عن الاغاني التي تغنى في صفوفنا ، نحن المقاتلين، الا ان الخيط السري الذي يوصل بين التجربتين هو الثورة ، تلك المحصلة الرائعة للبؤس والعذاب والطموح الانساني ..

فمن اجل ان تتواصل اغاني الشعبين الفلسطيني والمصري نلتقي اليوم ..

ولماذا لا نلتقي ونرتبط باغاني الشعوب عبر موسيقى كفاحها ضد اعدائها ..

ولماذا لا نستمع معا لغناء المناضلة محسنة توفيق من شعر احمد فؤاد نجم وغناء الشيخ امام ..

نشكركم لحضوركم ولكم تحيات النضال...

حوار مع الفنان العراقي ضياء العزاوي

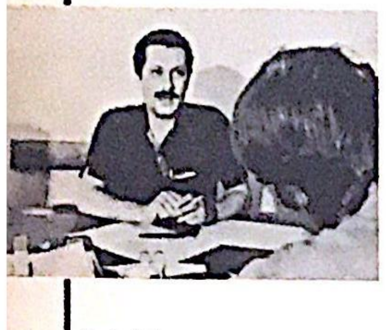

« ان الصلة التي تربط اعمال الفنان التشكيلي العراقي ضياء العزاوي بالفدائي الفلسطيني عميقة الى حد جعله متمايزا من خلالها .. وهي لم تتوقف عند حدود الفدائي نفسه بل استطاع من خلال حساسيته الفنية المرهفة الارتباط بالارض التي هي نقطة توجه ذلك الفدائي عبر تجربته الكفاحية . خاصة تجربته الايلولية الدامية في الاردن والتي استوعبها كتاب « شاهد من هذا العصر » .

بعد ذلك تتمخض صلة قوية فيما بين اعماله واعمال الشهيد غسان كنفاني لتعبر عن تواصله بذات الفدائي وتصاعداته ..

في هذا اللقاء القصير مع الفنان سنكتشف الاسباب الموجبة لتلك الصلة وابعادها .. »

● لماذا الفدائي وعموما الاستشهاد كنموذج في اعمالك ؟ هل هو نوع من الرغبة والعجز عن تحقيقها ؟ ام نوع من التفكير ؟

ـ ان الاعمال المكرسه للشهيد كنفاني (ضمن مجموعة المجلد الثاني) هي امتداد لتلك الروحيه التي تاسست منذ اخترت الفدائي كنموذج انساني متفرد وسط زيف الصراعات والبطولات لقد طرحت هذا النموذج في كتاب « شاهد من هذا العصر » والذي صدر عن وزارة الاعلام العراقية وقبله كتاب « هذه الارض جلد عظمي » الغير المطبوع .. ترى لماذا النموذج الفدائي ؟.

الاجابه على ذلك لا يتم بالضرورة من خلال الاستشهاد كنوع من الطهر الانساني المتحقق عبر الموت ، او تلك الهواجس الرومانسية في الخلاص . وانما من خلال التركيزات التي يملكها هذا النموذج كمهمة تحريضية لايجاد نهارات سعيدة للمضطهدين ، وبالتالي ما يحتمله هذا النموذج عبر ممارساته النضاليه في المخيم ، الفصيل ، الشارع كاكثر العوامل مقدرة في تحقيق مستقبل يؤكد انسانية الانسان قد تكون للبطولة احتمالات التحقق الفردي لكنه ليس بالمستطاع ان تكون كذلك فيما اذا تمثلت خارج الهموم وانتزاعات الذاتية . ان الشهيد هو نموذج ملتحق بانتصارات كثيرة ، انه جزء من امتدادات نضالية خارج وداخل الوطن ، وعبر هذا الالتحاق وهذا الامتداد يكون شرفه الانساني وطهره ، هذا الشرف الذي يكرس لانتصار الافكار التي يلتزم بها من اجل خلاصه الذي هو خلاص حلمه الحزبية ، حضيرته العسكرية وتتسع الدائرة لتشمل الوطن والمضطهدين بشكل عام .

● ماذا اعطاك غسان ؟ وماذا اعطيته ؟

ـ ان مجموعة التخطيطات هي جزء مكمل ومنفصل عن القصص في آن واحد .. كيف يحتمل هذا التناقض .. ان ايجاد تخطيطات للاعمال الادبية (الشعر ، القصة ، الرواية) لا يمكن ان تكون ذات رؤيا ايضاحية او تفسيرية لما تعبر عنه تلك الاعمال ، لان ذلك من شانه اسقاط ادوات الفنان فكرا وتكنيكا في هوة التقليد الغير المباشر ، ان التخطيطات هي جزء منفصل عندما تملك مقدرة الاضافة وتلغم القارىء بالشك والتحريض ، ومكملة عندما تكون ذات رؤيا ممثلة للعمل الادبي المرسوم تمثل تختزل الاضافة التي هدمتها الرؤيا الادبيه وبالشكل الذي تنجز تصورا تشكيليا ناجحا عبر الدواخل الادبية المنبثق عنها .

ان وجود غسان هو من خلال نضاله السياسي ، والادب احدى وجوه هذا النضال وبالتالي لا يمكن تحقيق الفصل فيه بين مهمته كاديب او كمناضل سياسي .. ان غسان كلاهما ولهذا تكتسب اعماله قيمة استثنائية في حقيقة اداناته وهمومه ، لقد كان يتحدث عن نماذج في الكويت ، العراق ، بنفس اللغة والمقدرة عندما يتحدث عن المقاتلين في المخيمات وفي فلسطين المحتلة .. ما الذي تعنيه تلك المقدرة ؟. يعنينا انها في صالح النموذج الذي طرحه عبر كتاباته ، نموذج الانسان المقاتل من اجل خلاص شعبه ، هل اضافة مهمة رسومي لمجلده على معرفتي به .. لا شك في ذلك ، لقد اوجدت معرفة لها صبوات الامتداد لسنوات طويلة .

● ما الذي حققته في التخطيطات ؟

ـ ان هذه التخطيطات هي شكل متصاعد من تجربتي في هذا المجال . ولا شك من ان بعضها يمكن ان يكون تكثيفا جيدا لمجمل اهتماماتي في القيمه التي يقدمها من جهة واحاديه اللون من جهة اخرى . لقد قدمت تصدعات الشكل في جانبه المادي او الانساني لغة موفوقة في المتابعه لمجمل حدث التخطيط ولم تكن هناك اي فصل ممكن بينها .

● اين يكون الفن التشكيلي من الثورة ؟

ـ ان الانعلاق السياسي والشعبي وخاصة في المجال الاجتماعي هو من اكثر انواع هذا الفن اهمية للثورة في هذه المرحله فهو قادر على التحريض وكذا على تحقيق تطور فكري واجتماعي . ان الثوره الفلسطينيه بحاجة لمركز اعلان كامل يتفاعل في نشاطه مع كل الثورات والانتفاضات العالمية وعبر هذا التفاعل يتحقق وجودها وترابطها . وعندما يكون الاعلان بمستوى المقوله ان الفن ليس رد فعل وانما هو خلق فيه سيكون قادرا على ان يكون كاهمية البندقية او اجتماع خلايا المقاتلين ■■